"سوسيولوجيا الإسلام في الفكر الخلدوني -"قراءة في سوسيولوجيا الدين

أ.د. يوسف عناد زامل/ كلية القانون/ جامعة واسط
م.د. أحمد ياسين أحمد/ كلية الآداب/ جامعة واسط

مقدمة:

كان ابن خلدون عقلية واضحة كلها ضوء، وان ضوءه العقلي يمزق كل غموض، انه من الأتقياء ومن كبار العلماء المسلمين، ومن الشخصيات المرموقة ، وانه على سعة افقه لم يصدر رأيا واحدا يجافي تعاليم الإسلام ، بل إن مفاهيمه المتطورة كانت تطويعا للمجتمع من منطلق روح المبادئ الإسلامية، كان موسوعيا بأبواب الثقافة الإسلامية المختلفة ، وأحاط بها إحاطة شاملة ، كتب في الكلام وأصول الفقه ، كما كتب في التصوف والفلسفة ، ومقدمته دليل كاف على علمه الواسع واطلاعه الغزير .وجعل ابن خلدون العرب محور تفكيره، وأعطاهم الدور الأول في الإسلام فهم حملوا رايته وقاموا بالفتوحات وحددوا نطاق دار الإسلام وهو يرى إن العرب كانت تفرقهم العصبيات القبلية وطبيعة العداوة التي تخلو من الوازع لافجاء الإسلام بعصبية جديدة غمرت العصبيات الأخرى كما انه (الإسلام) نقل العرب إلى مرحلة استقرار وتطور حضاري وهو يركز على مضر في هذه الآراء لان الدولة العربية في الإسلام " دولة مضر" وهو على إيمانه يرى للعرب منزلة خاصة في المجتمعات الإسلامية . وبعد ابن خلدون وفقا لهذا المفهوم من المفكرين السابقين لزمنهم ، ومن المبتكرين والمجددين الذين بقيت أرائهم وأفكارهم مصدر وحي دائم ومبعث الهام مستمر ، حيث أتى ابن خلدون بما لم يسبق إليه وهو "علم العمران" أو ما يسمى في عصرنا الحالي بعلم الاجتماع الإنساني وكشف عن آراء ونظريات لم يهتدي إليها الباحثون إلا بعد موته بقرون، وهو بهذا يعد بحق في مقدمة أعلام الفكر العربي بل والإنساني . وقد حرص ابن خلدون على أن يجعل مقدمته "إسلامية الوجه قرآنية المبنى والدليل " ونستطيع القول في هذا ، أن المجتمع الإنساني والعمران البشري الذي وضع ابن خلدون أساسه ولبناته ، فقد ربطه بالرباط الفكري الإسلامي في كل شعبه . ويستوي في ذلك نظم الحكم والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والثقافية

ويعد ابن خلدون واحدا من أولئك الإعلام الذين تربوا في أحضان الإسلام وتعاليمه والذين كانت لدعوته القوية أثرها الواضح في حياتهم العلمية والفكرية ، فملامح الدين الإسلامي والعربي واضحة جلية فيما كتب . ونظرته الإنسانية تتحلى في الطريقة التي تناول بها دراسة المجتمعات المختلفة اذ هو في ذلك يصدر عن تفكير علمي تجريدي أصيل وفقه إسلامي إنساني صحيح ، وهو في الوقت نفسه أشاد للعرب كأصحاب رسالة دعوة ، ولولا مبادئ هذا الدين ما سعدت البشرية بأمثال" ابن خلدون " وإخوانه ممن ساروا معه على الدرب ، فكانوا أئمة عصرهم وهداة قومهم وذخيرة الأجيال من بعدهم ، لذا تم اختبار موضوع البحث أساسا علة ما جاء به من كتابات وعبارات وسطية في كثير ما كتب لاسيما مقدمته التي أنارها لكثير من ايات القران الكريم وأحاديث الرسول (ص) ، ليعالج بها علل المجتمع من النواحي الاجتماعية والاقتصادية ... الخ .

من المؤكد ان "ابن خلدون" نتاج بيئته وحصاد مجتمعه ونتاج ثقافته ، فقد كان عالما من علماء المسلمين وفقيها من فقهاء الشريعة ، وعلما من أعلام المذهب المالكي ، ومن ثم صدر في نظرياته جميعا من منطلق إسلامي محض ، وهو ما لم ينتبه إليه احد في الغرب وأكثر دارسيه في الشرق، فنظرية العمران التي تعد أهم منجزاته الفكرية إسلامية جملة وتفصيلا ، ونظريته في مجال العصبية كان سبيله في علاجها سبيلا إسلاميا و أما نظريته التاريخية التي فتن بها الغربيين – وهي ثاني انجازاته الفكرية أهمية – فهي تأثر مباشر بمنهج الجرح والتعديل عند علماء الحديث الشريف ، لقد اعتمد ابن خلدون الأسس الإسلامية وهو يقدم نظرياته ، ونظام الحكم الذي رآه مناسبا للعمران ، وهو نظام الخلافة الإسلامية وتبني ابن خلدون لعناصر كتاب طاهر ابن الحسين لولده ، حين ولاه المأمون مصر تمثل جوهر النظام الإسلامي في الحكم ، كما تبنى ابن خلدون رسالة الخليفة عمر ابن الخطاب " رض " إلى أبي موسى الأشعري في القضاء وجعلها الدستور الأمثل لنظام القضاء في مجتمع العمران البشري ، وكيف التزم ابن خلدون بالشريعة الإسلامية التزاما كاملا ، لقد كان ابن خلدون إسلامي الخطوات في المقدمة من أولها إلى آخرها ، بحيث يتحتم ألا يكون فكره إلا إسلاميا وهو ما لم ينتبه إليه دارسو الفكر الخلدوني على الأقل إلا من زوايا ضيقة .

ومادام رأس الدولة في العمران الخلدوني هو الإمام أو الخليفة فإنها عنده وظيفة دينية سياسية اجتماعية ، كل هذه الآراء تمثل عمق الفكر ودقة الاستقراء للإحداث التي عاشها ابن خلدون والتي عبرت بشكل واضح عن عمق إيمانه ، ولعلنا نلاحظ وهذا أمر مهم جدا أن ابن خلدون وهو في حديثه عن نظريته في العمران بعيد كل البعد عن " المادية " التي نسبت إليه من بعض الذين أعجبوا به ، بل انه يقرر انسجاما مع عقيدته في وضوح كامل ، إن معنى العمران هو ما أراده الله من اعتمار العلم ببني الإنسان واستخلافه إياهم في الأرض ، فالعمران عنده اصطلاح قرآني صريح وقيمته إسلامية واضحة وهو استخلاف الله للإنسان في هذا الكوكب وان كلما فيه مختص به مسخر له .

وباختصار يمكن القول : إن ابن خلدون "فقيه أصولي مجتهد" وهو أستاذ كانت دروسه أصلا في التفسير والحديث والفقه وقد حرص في كل أفكاره التي عرفت بالنظريات فيما بعد على أن يدعم كلا منهما بما يؤكد إسلاميتها بآية قرآنية أو أكثر أو حديث شريف أو عمل مأثور أو بفواصل إيمانية . إن ما آلت إليه الأوضاع الاجتماعية من فساد وانحطاط في عصر ابن خلدون جعله ينصرف لدراسة المجتمع يطلب من الدروس والعبر التي شانها أن تساعده على فهم الحاضر ومشاكله ، لا ريب إن ابن خلدون اعتمد على التراث المعرفي الإسلامي الذي بدأه الإسلام وشكل تطوره فيما بعد عملية تاريخية طويلة عمقها الواقع الاجتماعي ، فكغيرها من الحضارات السابقة اتسمت الحضارة الإسلامية بمنهجها الخاص المميز لها وترد أصول هذا المنهج إلى القران الكريم آفاق المعرفة عند المسلمين فانصرفوا لدراسة الكون والاستدلال على ظواهره والبرهان عليها لقد سلك ابن خلدون مسلكا علميا

لم يكن مألوفا لدى سلفه إذ جاءت فلسفته المعرفية خلاصة ثقافته الفكرية الإسلامية وتجاربه وخبراته لاسيما ثقافته القرآنية . اما الجانب الثقافي فيتمثل في تحصيل ابن خلدون للعلم ثم عطائه فيه ذلك العطاء الوفير المتسم بعمق الفكر ودقة استقراء الأحداث ففي الجانب ألتحصيلي حفظ القران ودرس علومه كما درس الحديث الشريف والفقه والأصول واللغة والأدب والمنطق والفلسفة ولقد جلس ابن خلدون للتدريس في أكثر البلدان التي حل بها وكانت المساجد الكبرى والمدارس الشهيرة مقرا لحلقات دروسه كما تولى التدريس في الأزهر الشريف واستطاع من خلال ذلك إن أفكاره إلى عدد كبير من الدارسين المصريين وغيرهم من الوافدين إلى مصر . هذا هو المعين الذي نهل منه ابن خلدون ومما عمق ذلك تجارب الرجل وخبراته وحياته وتأملاته كانت حياته مدرسة استطلع من خلالها مجتمع عصره فلاحظ حوادث الأيام وجمعها وصنفها وهكذا وليس المنهج الخلدوني طفرة بقدر ما هو حصاد التراث المعرفي الإسلامي لكنه يشكل بحق ثورة في تاريخ فلسفة المعرفة .

سنتناول في هذا البحث موضوعا إسلاميا بحتا ولم نعتمد مصادر كثيرة في ذلك ، لأننا سنقوم بتحليل الفكر الديني من خلال قراءتنا لمقدمة ابن خلدون ونقتبس بتصرف ما يتعلق بتوجهه الديني وربطه بعلمي الانثروبولوجيا والاجتماع ، من خلال تبيان بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والمضامين الدينية التي تضمنتها مقدمته الشهيرة وعلاقتها بسلوك الجماعات وأعمالهم وربط ذلك بالظواهر الاجتماعية في القرآن الكريم .. وسيتضمن البحث المحاور الآتية :

. أبن خلدون والتراث الإسلامي

أعتمد أبن خلدون على التراث المعرفي الإسلامي الذي بدأه الإسلام , والسبب في ذلك هو ما آلت إليه الأوضاع الاجتماعية من فساد وانحطاط في عصره جعله ينصرف إلى دراسة عمق الواقع الاجتماعي , واعتماد منهج القرآن الكريم في حل مشاكل المجتمع لأنه يستطيع مخاطبة عقول البشر وحواسهم وحدسهم وهكذا فتح القرآن الكريم أفاق المعرفة عند المسلمين فانصرفوا لدراسة الكون والاستدلال على ظواهره والبرهان عليها وقد نلاحظ إن أبن خلدون سلك مسلكًا علميًا لم يكن مألوفًا ممن سبقوه نتيجة لثقافته القرآنية وهي تعد فلسفة معرفية فكرية إسلامية 0والثقافة الفكرية الإسلامية عند أبن خلدون جاءت نتيجة فكره العميق ودقة استقراء الأحداث , ففي الجانب ألتحصيلي حفظ القرآن ودرس علومه ودرس الحديث الشريف والفقه والأصول واللغة والأدب والمنطق , فقد درس أبن خلدون في المساجد الكبرى كما في التدريس في الأزهر الشريف , وأستطاع من ذلك نشر أفكاره الإسلامية إلى عدد كبير من الدارسين المصريين وغيرهم وفي أكثر البلدان التي ظلَ بها 0 وإن أصل المعرفة الإسلامية عند أبن خلدون تأتي من اعتماده (1 :(مصادر أساسية معرفية هي

الحقيقة إن فكر أبن الخلدوني الإسلامي مقدمته تدين بالجانب الأكبر من روحها مستوحاة)
من القرآن الكريم : بل هو مدين للقرآن على حد كبير حتى في أحكامه على الأخلاق والطبائع , إن

القرآن الكريم بقصصه على حياة المجتمعات الغابرة واندثارها ودورتها التاريخية كان مصدر إلهام لأبن خلدون 0 فالقرآن يحث الإنسان على اصطناع منهج العلم القائم على النظر في الكون بالقياس والاستقراء أو هما معاً بقصد الوصول إلى المعرفة ، ومن ثم الحديث الشريف : شكلت الأحاديث النبوية الشريفة من التحديات المعرفية الأساسية للمسلمين بعد القرآن الكريم , وقد انبرى الفقهاء لوضع قواعد لجمع الحديث في الصدق والاعتماد على اللفظ دون المعنى , وقد اعتبرت الأحاديث النبوية الشريفة المادة الواسعة التي تشمل جميع المعارف الدينية تقريباً , فهو يشمل التفسير بمعنى إن الحديث فسير لآية قرآنية والحكم الفقهي , أو في شرح الحالة الاجتماعية 0 إذن هناك علاقة وطيدة للفكر الخلدوني بالقرآن الكريم والحديث الشريف ونستطيع القول أيضاً بأن أبن خلدون من أولئك اللذين تربوا في أحضان الإسلام وتعاليمه , فملامح التفكير الإسلامي في كتبه ونظرياته تتجلى في طريقته التي تناول فيها دراسة المجتمعات المختلفة وفي مقدمته الشهيرة " كتاب العبر والمبتدأ والخبر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ")0

. مفهوم القرآن الكريم في الفكر الخلدوني

إن مفهوم القرآن الكريم عند أبن خلدون هو مفهوم شرعي وعلمي معاً هو : " كلام الله المنزل على نبيه محمد (ص) المكتوب في الصحف " وأبن خلدون عارف بعلوم القرآن وأحكامه , ثم له في الفرق بين التهجئة والرسم في المصحف رأي يوصفه في أن العرب كانوا بعيدين عن الصنائع كلها ومنها صناعة الخط 0 ويؤكد أبن خلدون على ضرورة إجادة الأداء عند قراءة القرآن الكريم ، أي أداء الحروف على وجهها من مخارجها المخصوصة وبمدودها المعينة ، أما التلحين فينجزه بقدر إذا ساعد على حسن الأداء ، ويرى أن تفسير القرآن الكريم يمكن أن يكون عن طريق اللغة والبلاغة ، فضلا عن ذلك يعرض أبن خلدون في مقدمته تفسيرا لعدد من الآيات الكريمة أشهرها آيتان " ألم تر كيف فعل ربك , أرم ذات العباد " سورة الفجر ، آية 7 (2) . ويستشهد أبن خلدون بما ورد في القرآن الكريم فيما يتعلق بالعمران الإنساني فأن الشواهد عليه كثيرة وأدلته من القرآن والسنة كثيرة هي الأخرى 0 كما بين موقفه من الحديث وهو موقف لاحق بالقرآن الكريم , كان أبن خلدون عارفًا وبارعاً بعلوم الحديث , وهو يريد أن يفسر الحديث بالعقل وقد وتناول موضوعات عدة في هذا الخصوص ، مثل الانتقال من البدو إلى الحضر وحديث الفلاحة وهو يمدح بالدين والتقوى ويفتخر بذلك كله 0 ففي ديباجة مقدمته يذكر تقديم كتابه إلى السلطان فارس عبد العزيز (سلطان المغرب) فيقول " 000 من ملوك بني مرين اللذين جددوا الدين ونهجوا السبيل إلى المهتدين , ومحوا آثار البغاة والمفسدين)" (3).

أفاء حرص أبن خلدون على أن يختم كل فصل من فصول المقدمة طال ذلك الفصل أو قصر بشواهد قرآنية 0 وقد ألتزم أبن خلدون بهذا المنهج التزاماً دقيقاً , وراعى أن تكون هذه الآيات ذات علاقة جوهرية بالموضوع الذي يتناوله لقد اخترنا عدداً من فصول المقدمة بالتتابع بلغ عددها

ثلاثة وثلاثين فصلاً , فوجدنا عدد الآيات القرآنية التي ختم بها أربعاً وعشرين آية , وحديثاً نبوياً شريفاً , وعدد من الجمل ذات المعاني القرآنية الكريمة , وعدداً أخر من عبارات التمجيد الإلهي وصيغ الابتهال الرباني ومن بين الشواهد هي :

* في خاتمة استفتاح المقدمة يشير إلى قوله تعالى " حسبنا الله ونعم الوكيل " سورة آل عمران آية 173 0

* في أن البدو أقرب إلى الشجاعة والأصالة بقوله " الله يخلق ما يشاء " سورة آل عمران آية 47 0

* في البيت والشرف والأصالة , يختمه بقوله تعالى " والله بكل شيء عليم " سورة النور آية 35 0

* في الرئاسة على أهل العصبية بقوله تعالى " والله عالم الغيب والشهادة " سورة الأنعام آية 73 0

* فصل في حقيقة النبوة والكهانة والرؤيا يختمه بقوله تعالى " والله يعلم وانتم لا تعلمون " سورة النور آية 19

* فصل في اثر الهواء في أخلاق البشر يختمه بقوله تعالى "الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم" سورة البقرة آية 213 0

* فصل في أن من عوائق الملك حصول الترف يختتمه بقوله تعالى " قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء " سورة آل عمران آية 26.

* فصل في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع يختتمه بقوله تعالى " انه بكل شيء محيط " سورة فصلت آية 54 0

* في آن الربيع الشمالي من الأرض أكثر عمرانا 0 يختمه بقوله تعالى " وأن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب " سورة آل عمران آية 190 0

وقد وجدت بعض شواهد الدعاء والتسبيح في بعض فصول المقدمة :

- في قسط العمران من الأرض , يختتمه بالدعاء (والله الموفق)0
- في طبيعة العمران , ويختتمه بالدعاء (والله ولي التوفيق والهداية)0
- في فضل علم التاريخ , ويختتمه بالدعاء (والله الهادي إلى الصواب)0

وقد بلغت الشواهد القرآنية والأدعية والتسبيح في مقدمة أبن خلدون ما يقارب مائتي وسبعين شاهد منها ما يقارب ثلاثة وثمانين ترد فيها الصيغة " الله اعلم " مجردة أو على شكل تراكيب مثل قوله والله سبحانه و تعالى أعلم , وبه التوفيق 00 وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مرد له , والله تعالى أعلم 0 وهنالك اثنان وعشرون شاهد تتعلق بعلم الله في غير صيغة التفضيل نحو : سبحان الحكيم العليم 00 وفوق كل ذي علمٍ عليم ة000 والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن 0

مما تقدم نستنتج إن أبن خلدون كان دءوبا وحريصاً أن يختم كل فصل من فصول مقدمته بشواهد قرآنية مستمدة قدر الإمكان من موضوع الفصل المخصوص بها 00 وكثيراً ما تكون هذه الشواهد في نهايات الفصول كقوله والله أعلم 00 والله الموفق 00والله يخلق ما يشاء سبحانه 0ونستنتج أيضاً أن أبن خلدون قد حفظ من القرآن الكريم منذ صباه حيث يقول : " وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظي , قرأته بالقراءات السبع أفراد وجمعا في إحدى وعشرين ختمه , , ثم جمعتها في ختمه واحدة أخرى .

. الدولة والملك والباعة في الفكر الإسلامي الخلدوني

لقد وصف أبن خلدون أعمار الدول والملك والباعة في مقدمته من خلال بعض النصوص القرآنية الكريمة إذ يقول : إن نظرية أعمار الدول نفسها نظرية قرآنية , حيث أستقى أبن خلدون فكرتها وأساسها من القرآن الكريم الذي يحفظه ويعي أحكامه كما أسلفنا , أن القرآن الكريم ينص في آيات كثيرة أن للدولة أعماراً ينتهي كيانها بنهايتها ثم تخلفها دول أخرى أكثر نظاماً واشد قوة وأوفر صلاحاً , فالله سبحانه وتعالى يشير إلى القرية وفي آيات أخرى القرى هي الدولة أو الدول , والقرية الظالمة هي الدولة الفاسدة فالظلم هو أشد ألوان الفساد (4) ،كما في قوله تعالى " وكم قصمنا من قرية ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين " سورة الأنبياء آية 11 0

ويقرر أبن خلدون أن للدولة" أعماراً" كأعمار الأشخاص , بمعنى إنه إذا كان لكل شخص عمر محدد تنتهي حياته بنهايته , فأنه للدولة أعماراً محددة تنتهي ويزول سلطانها بنهايته , ويقول أبن خلدون أن عمر الدولة لا يعدو أعمار ثلاثة أجيال وهو يقدر الجيل بأربعين سنة (5) ، ويستشهد بقوله تعالى " فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون " سورة الأعراف آية 34 0ويشدد أبن خلدون على حتمية نهاية أعمار الدول ,ومن هنا فأن نظرية أعمار الدول هي في ظاهرها و باطنها وجوهرها نظرية قرآنية كما في قوله تعالى " قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله " سورة يونس آية 49 0ويستشهد أبن خلدون أيضا في الآية القرآنية الكريمة " عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعلمون " سورة الأعراف آية 129 0 إذ يرى في هذه الآية أن الدولة تولد قوية على صلاح على أطلال دولة فاسدة, وتظل الدولة الصالحة على قيد الحياة ما دام عدلها مستمراً فهلاك العدو في الآية الكريمة يعني هلاك دولته , والاستخلاف في الأرض يكون بميلاد دولة مكان دولة العدو 0وهذا تعبير واضح من أبن خلدون عند نشأة الدولة ومولدها , كما أنه تحدث عن القوة والنماء إذ ذكر قوله تعالى مثلاً " قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون "سورة النحل آية 112 0 وتعد هذه مرحلة مهمة من أعمار الدول (القوة والنماء) بعد مرحلة نشأة الدولة ومولدها التي تحدثنا عنها قبلها (6).

ويقصد بالمرحلة الثانية بما تعبر عنه الآية الكريمة ، إن الدولة هنا كانت في مرحلة الاستقرار والأمن والازدهار , فلما انصرفت عن النعمة المتمثلة بالقوة , ومالت إلى البطر والظلم انتهى بها الأمر إلى الانحلال والضياع 0 أما الشواهد القرآنية في المرحلة الثالثة مرحلة الانحلال والضياع تمثل هذه المرحلة بالآية الكريمة " وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً " سورة الكهف آية 59 0 وقوله تعالى " وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً وكان ذلك في الكتاب مسطوراً " سورة الإسراء آية 58 0 وفي قوله تعالى " وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون " سورة هود آية 117 0 وقوله تعالى " وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمتها رسولاً يتلو عليهم آياتنا , وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون " سورة القصص آية 59. والملاحظ من الآيات القرآنية الكريمة والتي أستشهد منها عن الضياع والانحلال في الدولة 00 إن هذه الآيات أكدت مهلك الدولة أي نهايتها , وارتبط هلاكها ونهايتها بفسادها في الأرض بالظلم الذي يمارسه حكامها , وتتطرق هذه الآيات الكريمة إلى مبدأ نهاية عمر الدولة 0 اما "الملك" فقد وصفه أبن خلدون في فكره لاسيما في مقدمته الشهيرة , وأستشهد بقوله تعالى "أفحسبتم إنما خلقناكم عبثًا" سورة آية 115 0 والمُلك الذي يعنيه أبن خلدون هنا اهتمامه بالإنسان يشمل دنياه وآخرته , ذلك أن القوانين التي تطبق على المجتمع الإنساني يجب أن تكون إلهية, وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم كلها عبث وباطل 0 اما وصفه للباعة لقد أسرف أبن خلدون في النيل من التجارة والتجار, وفي هذه الآية الكريمة الآتية يقصد الباعة وسوقهم, أما التجارة فمهنة كريمة , وأن أصحاب المروءة من الرجال هم الأكثرية من التجار(7) ، إذ يذكر قوله تعالى "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين" سورة البقرة أية 251.

إذا نخلص مما تقدم في وصف الدولة والمُلك والباعة أن رأس الدولة في العمران الخلدوني هو الأمام أو الخليفة فأنها عنده وظيفة دينية سياسية اجتماعية , وكل هذه الآراء تمثل عمق الفكر ودقة الاستقراء والتي عبرت بشكل واضح عن عمق إيمان أبن خلدون بالله 000 والملاحظ عن مستهل حديثه في نظريته في العمران بعيد كل البعد عن المادية التي نسبت إليه من بعض اللذين أعجبوا به , بل إنه يقرر انسجاماً مع عقيدته في وضوح كامل , إن معنى العمران هو ما أراده الله من اعتمار العلم نبني الإنسان واستخلافه إياهم في الأرض , فالعمران عنده اصطلاح قرآني صريح وقيمة سلامية واضحة وهو استخلاف الله للإنسان في هذا الكوكب 0 باختصار أن أبن خلدون فقيه وهو أستاذ كان [illegible] , في التفسير والحديث والفقه , وقد حرص في كل أفكاره التي عرفت بالنظريات فيما بعد على أن يدعم كل منهما بما يؤكد إسلاميتها بآية قرآنية أو حديث شريف أو عمل مأثور 0 ويمكن القول أن أبن خلدون نتاج بيئته وحصاد مجتمعه ونتاج ثقافته , كان عالماً من علماء المسلمين وفقيهاً من فقهاء الشريعة , وعالماً من أعلام المذهب المالكي , ومن ثم في نظرياته كما بينا من منطلق إسلامي محضاً , فنظرية العمران التي اوضحناها تعد أهم إسلامية [illegible] , ونظريته في مجال العصبية كان سبيله في علاجها سبيلاً

لقد أعتمد أبن خلدون الأسس الإسلامية إسلامياً 0

وهو يقدم نظرياته , ونظام الحكم الذي رآه مناسباً للعمران وهو نظام الخلافة الإسلامية 0 إذن كان أبن خلدون إسلامي الخطوات في المقدمة من أولها إلى أخرها بحيث يتحتم إلا يكون فكره إلا إسلامياً , وهو ما لم ينتبه إليه دارسوا الفكر الخلدوني 00 وهو بهذا مؤسس علم الاجتماع الإسلامي 0

القرآن الكريم ونظرية ابن خلدون الاجتماعية .

إن علم الاجتماع هو العلم الذي يدرس التفاعل الناشئ عن تجمع البشر في مجتمع ما من خلال العلاقات أو الظواهر والواقع الاجتماعي في أطار منهج علمي وموضوعي يعبر عما هو كائن 0فالقرآن الكريم يذكر العديد من أمثلة الظواهر الاجتماعية التي ترددت لدى الأقوام اللذين أرسلت لهديهم كظاهرة التقليد والترف والظلم والاستبداد في الحكم والإجرام وعبادة الأوثان والكواكب وتقديس الحيوان من الملائكة والجن ووأد البنات واحتقار المرأة واستغلال المستغلين اللذين يأكلون أموال الناس بالباطل وإلى ظهور الطبقية (طبقة رجال الدين , طبقة المتكبرين , وطبقة الضعفاء) 0 وأفاد أبن خلدون من القرآن الكريم في أنشاء نظريته الاجتماعية فائدة غير قليلة وقد نادى بذلك بعلمه " علم الاجتماع " بدراسته للظواهر الاجتماعية أو " العمران البشري " في مقدمته وكان الهدف منه واضحاً : " بنفسه فأنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماعي والإنساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض لذاته واحدة بعد الأخرى , وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً "(8) 0

ومن الظواهر الاجتماعية التي وصفها القرآن الكريم والتي يشير إليها في المقدمة " ذم الترف " وتبيان أثره في هلاك الأمم كما يشير القرآن الكريم في كثير من آياته إلى ارتباط الأسباب بمسبباتها والعلل بمعلولاتها في الظواهر الاجتماعية من خلال أحوال الأقوام الغابرة والأمم السالفة ارتباطاً عما يسميه العلماء المحدثون بالقانون أو النظرية أو التعميم 0 وقد ذكر في " القرآن الكريم " ذم الترف " لكي يحذر الناس من عواقبه السيئة في دينهم ودنياهم , أما أين خلدون فقد عد الترف أمراً اجتماعياً محتوماً لابد من وقوعه في الحضارة , ولا يستطيع الناس أن يتخلصوا منه عند التحضير إذ هو يكون جزء من عاداتهم , والعادات عند أبن خلدون قاسرة (9)0

الظواهر الاجتماعية والقرآن الكريم ومقدمة ابن خلدون.

لقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا الشأن أشار إليها أبن خلدون في مقدمته يمكن إجمالها بالآتي:

* يصف القرآن الكريم المترفين بأنهم سبب هلاك المجتمع في قوله تعالى " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا " سورة الإسراء ، آية 16 0

* ويصف القرآن الكريم أولئك المترفين بأنهم يقاومون الدعوات الدينية بقوله تعالى " وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون " سوررة سبأ ، آية 34 0

ثم يصفهم بأنهم متعصبون لعقائد أبائهم , حسنة كانت أم سيئة وذلك بقوله تعالى " وكذلك ما * أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا أبائنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون , قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه أبائكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون " سورة الزخرف ، اية 23 .

والواقع إننا نجد تشابهًا كبيرًا بين المفاهيم القرآنية وما جاء في مقدمة أبن خلدون من " ، اذ أن أبن خلدون ترفَ " ل موضوع الترف من إطاره الديني الذي نشهده في القرآن الكريم إلى إطار أخر هو الإطار الاجتماعي 0 وقد شرحه شرحًا اجتماعيًا رائعًا . اذ وضح كيف يؤدي الترف بأصحابه إلى التحلي بالأخلاق السيئة " كالكذب والمقامرة والغش والخداع والسرقة والربا بالمبيعات " , ففي رأيه أن في ذلك أمر طبيعي تؤدي إليه عادات الترف من حيث التألق في المطابخ والملابس والمباني والفرش فتتلون النفس إلى التفنن في تحصيل المعاش , وتتصرف إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له , فلا تبالي عندئذ بالأخلاق الحميدة التي أمرت بها الشريعة الإسلامية 00 ويقول أبن خلدون : " ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات , والاسترسال فيها لكثرة الترف , فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ , ويتبع ذلك في الشهوات من الزنا واللواط 00 فأفهم ذلك وأعتبر به إن غاية العمران هي الحضارة والترف وإنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات " .

ومن طرائف ما جاء به أبن خلدون في هذا الصدد انتقاده لفكرة كانت شائعة بين الناس في زمانه , إذ كانوا يقولون " إن المدينة إذا كانت فيها غرس النارنج تأذن بالخراب " يقول أبن خلدون أن الكثيرين من العامة يتحامون غرس النارنج في دورهم ظنًا منهم في النارنج خاصية تؤدي بغارسه إلى الخراب، وفي هذا يرى أبن خلدون أن الأمر ليس بهذا المعنى , إنما معناه (أن البساتين وغجراء المياه من توابع الحضارة), إذ إن النارنج وأمثاله مما لا طعم له ولا منفعة فيه وهو لا يغرس في البساتين إلا من أجل شكله فقط , ولا يفعل الناس ذلك إلا بعد التفنن في مذاهب الترف وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه ولقد قيل مثل ذلك في " الدفلى " وهو من هذا القبيل , إذ " الدفلى" لا يقصد به تلون البساتين بورودها ما بين أحمر وأبيض , وهو من مذاهب الترف (10)0.

ويعتقد أبن خلدون أن " الترف " يزيد الدولة في أولها قوة والسبب في ذلك أن القبائل أذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومة , واستكثروا أيضًا من الموالي والصنائع وربيت أجيالهم في نعيم , فازدادوا بهم عددًا إلى عددهم , وقوة إلى قوتهم , بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد , فإذا ذهب الجيل الأول والثاني , وأخذت الدولة في الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالي بأنفسهم في تأسيس الدولة , وتمهيد ملكها ليس لهم من الأمر شيء , إنما كانوا

عيالاً على أهلها , ومعونة لها , فأذا ذهب الأصل , لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من القوة , وأعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الإسلام , إذ كان عدد العرب لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفًا أو ما يقاربها من مصر وقحطان , ولما بلغ الترف مبالغه في الدولة وتوفر نموهم بتوفر النعمة , واستكثر الخلفاء من الموالي والصنائع بلغ ذلك العدد إلى أضعافه (11).

ومن هنا يمكن القول، إن الظواهر الاجتماعية ترتبط بالقرآن الكريم ارتباطًا وثيقًا لما لها من تأثير على الأفراد داخل المجتمع , ويكون تأثيرها كبيراً عندما تكون نابعة من خلال الآيات القرآنية التي تمثل المبادئ الأساسية للتعامل خاصة المسلمين في المجتمعات الإسلامية ، ولابد من الإشارة أيضا إلى بعض الأحاديث الشريفة التي ترتبط بالظواهر الاجتماعية إذ يشير الحديث الشريف إلى الارتباط العلمي بين الظواهر الاجتماعية ونتائجها فقد ورد عن أبن عباس : قال رسول الله (ص) " ما ظهر من الغلول في قوم إلا ألقى الله تعالى في قلوبهم العب , ولا فشي الزنا في قوم إلا كثر فيهم الموت ولا نقص المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق , ولا حكم قوم بغيرالحق إلا فشا فيهم الدم .وبهذا يسوق الحديث الشريف عددًا من القواعد والسنن المطرودة في الظواهر الاجتماعية التى تسود المجتمعات , فالغلول والسرقة ونهب الأموال العامة يورث الخوف والرعب في قلوب السارقين الذين يصبح كل منهم غير أمن على نفسه أن تنكشف خيانته وحينئذ يدب الرعب وينتشر الهلع وتستشري الرهبة في نفوس القوم مما يفقدهم شجاعتهم وقدرتهم على الآخرين , وكذلك الزنا حين ينتشر بين قوم ما يؤدي إلى العزوف عن الزواج والبعد عن تكوين أواصر الأسر تكوينًا طبيعياً اجتماعياً , مما يؤدي إلى نقص في الأنفس وقلة في النسل يعقبها كثرة في الموت وميل إلى الانقراض العددي , وكذلك ظاهرة إنقاص الكيل والميزان وبخس الناس حقوقهم تؤدي إلى قطع الله الرزق عن هؤلاء جزاء وفاقًا لجشعهم وسوء حكمهم , وكذلك الحكم بغير الحق أي الظلم في القضاء من شأنه انعدام الأمان وهذا يؤدي إلى انتشار ظاهرة الأخذ بالثأر, وحصول صاحب الحق على حقه بنفسه 0وإذا كان القانون هو ترابط علمي مطرد بين ظاهرتين من ظواهر اجتماعية ، فأن القرآن الكريم والحديث الشريف يشيران إلى هذا الارتباط المطرد في حياة الجماعات و الأفراد من خلال تفنن السلوك وما ترتب عليه من الجزاء في الدنيا والآخرة ولفت النظر إلى سنن الله تعالى في الأقوام والجماعات .

وأكد أبن خلدون من خلال عملية الربط بين الظواهر الاجتماعية من جهة والقرآن الكريم من جهة أخرى في معالجة ما نسميه بواقعات العمران البشري أو الاجتماع الإنساني إذ يقول : " إنه لما كانت حقيقة التاريخ إنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم , وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من التوحش والتآنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض _ وما ينشأ عن ذلك كله من الملك والدول ومراتبها _ وما ينتحله البشر بأعمالهم من الكسب والمعاش والعلوم

والصنائع وسائر ما يحدث ذلك العمران بطبيعة العمران" . ويقول كذلك في المقدمة : " ونحن الآن في هذا الكتاب " يقصد المقدمة " وما يعرض للبشر في اجتماعاتهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع " إن أبن خلدون كانت لديه فكرة واضحة عن اتساع نطاق الظواهر الاجتماعية وشمولها كل مرافق الحياة وإنه لم يغادر أي قسم من أقسامها إلا عرض له دراسة (12) .

يتضح مما تقدم لقد توصل أبن خلدون إلى أهم القوانين في مجال الفكر الاجتماعي إلا وهي قوانين الحركة والتطور التي تشبه قوانين الكائنات الحية في العالم الطبيعي وهي كائنات لا تقف على حالة واحدة وإنما تتطور من الصغر , النمو , الكبر والهرم , وأبن خلدون ينتقل من فكرة القانون إلى فكرة الحياة وتطورها في نظامه الفكري , حيوياً بايلوجياً يقارن فيه المجتمع وحياته بالجسم الحي وحياته 0 وفي هذا يسبق (أوجست كومت) من ناحية فكرة تطور الحياة الاجتماعية , ويسبق (هربرت سبنسر) فكرة بناء التطور الاجتماعي على الناحية الحيوية , ويقول أبن خلدون في هذا ما نصه: (إن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوب كما إن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً) ، وبناءاً على الأساس الحيوي يبني أبن خلدون حركة التطور في المجتمع بالمقارنة بحركات الكائن الحي الذي لا يدوم نموه وارتقاؤه وإنما لابد من أن يضعف وينحل وينتهي بالموت قطعاً , والمجتمع البشري يتبع نفس هذا الاتجاه الحركي , " وتمثل هذه الحركة عند أبن خلدون في أربع مراحل متعاقبة لحياة المجتمع تتدرج من البساطة إلى التعقيد : الحالة الأولى يسميها البداوة , والحالة الثانية يسميها بحالة الملك , والحالة الثالثة يسميها بحالة الحضارة أما الحالة الرابعة فهي الحالة التي تهزم فيها الدولة وتضعف فيها شؤون المجتمع ويسميها بحالة الاضمحلال والخراب " (13).

ولعلنا نلاحظ أن أبن خلدون وهو في مستهل حديثه عن نظريته في العمران بعيد كل البعد عن المادية التي نسبه بعض ممن أعجبوا به إليها بل إن الرجل يقرر _ انسجاماً مع عقيدته _ في وضوح كامل أن معنى العمران هو ما أراده الله من اعمار العالم ببني الإنسان واستخلافه إياهم في الأرض , فالعمران عند أبن خلدون اصطلاح قرآني صريح, وقيمة إسلامية واضحة وهو استخلاف الله للإنسان في هذا الكوكب وما يحيط به 0

مصادر البحث وهوامشه

- القرآن الكريم .
- الحديث النبوي الشريف.
- ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ،ج 1،دار العودة،بيروت،1981.
- تاريخ العلامة ابن خلدون،ج 2،ط 1،الدار التونسية للنشر،تونس،1984ابن خلدون ،المقدمة-.

1- د.زكي محمد إسماعيل، نحو علم اجتماع إسلامي . دار المطبوعات الجديدة، الرياض ، السعودية، 1981،ص 15.

2- المصدر نفسه ، ص 16.

3- المصدر نفسه، المكان نفسه .

4- د.علي حسين جابر،مفكرو الإسلام والعمران البشري،دار مكتبة البصائر، بيروت، لبنان،2011،ص 107.

5- د.كاستون بوتول، ابن خلدون فلسفته الاجتماعية، ترجمة عادل زعيتر، شركة نوابغ الفكر ، القاهرة، ط 1 ، 2008، ص 53.

6- د.علي حسين جابر ، مصدر سابق ، ص 113.

7- د.كاستون بوتول ، مصدر سابق ،ص ص 55-57.

8- د.محمد محمود ألجواهري، المدخل إلى علم الاجتماع، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2013، ص ص 13-15.

9- العلامة محمد تقي المدرسي ، المجتمع الإسلامي- منطلقاته وأهدافه،المركز الإسلامي الثقافي، النجف، 1982 ص 29 – 36.

10- د.زكي محمد إسماعيل ، مصدر سابق ، ص 17 .

11- براينر تيرنر ، علم الاجتماع والإسلام ، ترجمة :ابو بكر احمد باقادر،دار جداول للنشر ، لبنان ، 2013 ، ص 56 .

12- المصدر نفسه ، ص 57 .

13- د.متعب مناف جاسم ، تاريخ الفكر الاجتماعي ، دار مكتبة البصائر ، بيروت ، لبنان ، 2001 ، 189 .